
بسم الله الرحمن الرحيم
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض"
الفجر القادم
الفجر القادم . مجلة ثقافية دورية تصدر شهريا . العدد 105 . شوال ١٤٢٨هـ نوفمبر ٢٠٠٧م
لا إله إلا الله
الله
رسول
محمد
مسائل جوهرية
في فكر السلفية الجهادية
للأستاذ د. أكرم حجازي
تلخيص / محمد أبو يحيى
التوحيد
1

في يوم جمعة من أواخر الثمانينات من القــرن الماضي، كنت واقفا أمام مقر عملي وقريبا من المسجد في إحدى البلدان العربية رفقة أحد الزملاء، وأمام ناظرينا وعلى مقربة من موعد الصلاة، توقفت شاحنة صغيرة وهي تقـل مجموعة من الشباب الملتحين وهم يرتدون جلابيب بيضاء، ثم بدؤوا ينزلون من الشاحنة بصعوبة ليقع بـعضهم أرضا! وبينما أراقب الموقف وكزني زميلي في خاصرتي سـاخرا: أهؤلاء سيحررون فلسطين؟ وللحق فقد ضحكت من المشهد وقهقهت وقلت له: أتراني أخالفك الرأي؟!

في تلك الأيام، وقبل عشرين عاما على وقوع المشهد، لم تكن الســلفية الجهادية، التي كانت تخطو آنذاك خطواتها الأولى، لتثير كثيرا فضول الباحث أو المراقب، ولم يكن أحد ليصدق أو يتخيل أنه سيأتي يوم يمكن أن يهتز فيه العالم بأسـره من فعل هؤلاء الذين كانوا في حين ما موضعا للسخرية والآن هم في دائرة صناعة الحدث العالمي.

كيف ينتظمون؟ لا أحد يعرف، من هم؟ لا أحد يستطيع تتبعهم بسهولة، كيف يتجندون ويتكاثرون؟ هي مشكلة المشاكل، من يدعمهم ويمولهم بعد تجفيف منابعهم؟ الكل يخمن ويتنبـأ، ما هي أطروحاتهم واستراتيجياتهم؟ قلَّ من يعلمها أو يعبر عنها خلا الأعضاء والأنصار وبعض المراقبين ممن يعدون على الأصابع.

فما الذي يمكن أن يفهمه عالم اليوم، بمســـلميه ونصاراه وبوذييه وهندوسييه وملحديه من أطروحات السلفية الجهادية عن قضية التوحيد أو الراية أو الحاكمية أو سايكس- بـيكو بينما هو غارق حتى ناصيته بالحداثة والعولمة ولغة السوق؟

بالتأكيد فهذه الأطروحات ليست موضع ترحيب عند أقـران السلفية الجهادية، فهي بـنظر البـعض مستحـيلة التحقـق ومتطرفة عند البعض الآخر وخارجية عند ثالث وباعثة على الفتن عند رابع وسبب رئيس في تشويه الإسـلام عند خامس ومشبوهة عند سادس وهكذا.

ولكن هذه التوصيفات لا تختلف كثيرا بالنسبة للسـلفية عما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه في أعقاب حـادثة الإسراء والمعراج، فمن صدق حينذاك، غير قلة في مقدمتها الصحابي الجليل أبو بكر، بـأن ما وقـع كان حقيقـة؟ فهل سيصدق أحد أن ما تفعله السلفية اليوم منطقي؟ أو مشـروع؟ أو ممكن التحقق؟

لا شك أن ضربة ١١ سبتمبر وحرب العراق وما أعقبهما من ظهور الجماعات الجهادية وفي مقدمتها تيار السلفية الجهادية مثل فرصة ثمينة جدا لفهم الظاهرة، ولا شـك أن الإعلام الجهادي الإلكتروني عبر عشرات الشبكات الجهادية قـد وضع النقاط على الكثير من الحروف ونجح إلى حد كبير في استفزاز الباحثين والدارسين للاطلاع على حقيقـة الخطاب السلفي الجهادي ليس من خلال الرموز فقط بل- وهو الأهم- من خلال رؤية الرواد والكتاب والعلماء وطلبـــة العلم والمنظرين وما يطرحونه من مواقف ورؤى.

والحقيقة أن هذه الأطروحـات، الواقـعة في إطار حـرب الأفكار الدائرة في ساحات المنتديات بـين مختلف التيارات الإسـلامية الجهادية وغير الجهادية، كشـفت عن بـعض مكنونات الظاهرة.

❶ لغة السلفية الجهادية

أولا: ثقـــافة التوحيـــد

يردد الشيخ أسامة بن لادن حكمة تقول: "**من أصعب المهمات توضيح الواضحات**".

ولعل أصعب قضية في عقل السلفية الجهادية وأثقـلها على المسلم هي قضية التوحـيد، إذما من قـضية يعادل وزرها وزر التوحيد.

هذه القضية، بـداية، تعني في اللغة الإفراد والتفرد الذي لا نظير له ولا شريك، وفي الاصطلاح الديني هو الشـهادتان وتحقيق مقصودهما، وأول الأركان الخمســة، وينقسـم إلى ثلاثة أقسام:

- توحـيد الربوبـية، وهو إفراد الله تعالى بـأفعاله كالخلق والملك والتدبير والإحياء والإماتة، ونحو ذلك.

- توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولا وعملا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله كائنا من كان.

وهذا النوع هو الذي وقع فيه الخلل، ومن أجله بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلق الخلق، وشرعت الشرائع، وفيه وقعت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم.

- توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله عز وجل بـما له من الأسماء والصفات عبر إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو ما أثبته له الرسول صلى الله عليه وسلم من الأسـماء الحسنى والصفات من غير تحـريف لها أو تأويل لمعناها أو تعطيل لحقائقها أو تكييف لها وتنزيه الله عن كل عيب، ونفي ما نفاه عن نفسه من صفات النقص.

لكن هل يمكن القول أن الأمة على توحـيد خالص؟ سـؤال يصلح للبحث بامتياز!.

ولعل أهم ما أنجزته السلفية الجهادية في التاريخ الراهن لهذه الأمة أنها أعادت إحـياء وتفعيل التوحـــيد كأهم مصطلح شـرعي على الإطلاق لا يوازيه في المكانة والعمل حـتى إعلانها للجهاد.

فهي تقيس كل سـلوكها وفعالياتها طبقـا لمفهوم التوحـيد ودلالاته وشروطه.

لذا فإن أول ما تعنيه السلفية بالقـول أن كل سـلوك يخالف عقيدة التوحيد هو بالضرورة سيكون واقعا خارج التوحـيد بقدر ما، وفي هذه الحالة فصاحب السلوك المخالف يمكن أن يُحكَم عليه، بحسب قربه أو بـعده عن التوحـيد: بـالآثم أو العاصي أو الفاجر أو الفاسـق أو الظالم أو المفارق للجماعة أو الكاذب أو المنافق أو الضال وصولا إلى المرتد والكافر.

وإذا كانت سايكس بـيكو تهيمن على الأمة عبـر تجزئتها وتفكيكها وغزوها بثقـــافات وافدة واستباحـــة أراضيها ومقدساتها وحرماتها والمساس بـدينها وعقـيدتها وفرض الأنظمة والقـوانين الوضعية عليها وخلق أنماط ثقـافية

ومعيشية تلائمها فإن تفعيل ثقافة التوحيد سيكون بـالمرصاد لكل مخرجات العقلية الوضعية ومن يدافع عنها أو يروج لها أو يحتمي بها.

وسيجد المسلم نفسه، تحت سقف التوحيد، مدعوا للاستجابة {لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} (الأنفال ٢٤) وليس لصناديق الاقتراع والصراعات الفكرية والحزبية والمفاوضات والمساومات والتحالفات المشبوهة والمصالح التنظيمية والحزبية، كما سيجد نفسه مدعوا للاختيار بين ثنائيات القانون الإلهي أو القانون الوضعي، والعدالة أو الظلم، والاستقامة أو الفساد، والجهاد والتضحية أو السلامة والذل، والتواضع أو الكِبْر، والصدق أو الكذب، والصرامة أو الميوعة، والحق أو الباطل، وهكذا وصولا إلى التوحيد مقابل الشرك.

ولأن التوحيد عقيدة ربانية خالصة فهي من الحسم بحيث لا تقبل أية اجتهادات أو رؤى أو تأويلات خارج ما تفرضه من شروط، ولا تقبل بأية مبررات تاريخية تجاه هذه الجماعة أو تلك، ولا تتسامح مع أية مواقف سياسية إلا بإخضاعها حكما لعقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والبراء من الشرك والكفر والطواغيت، وعليه فإن التوحيد بالنسبة للسلفية هو عقيدة كالسيف القاطع وأما من تأول وثَقُل عليه التوحيد فلن يفيده ليّ النصوص ولا العبث بها حتى لو نجح في مسعاه، فالدوران ينبغي أن يتجه حيث "تدور العقيدة" وليس حيث تستدعي الظروف والمصالح وموازين القوى.
هذا المنطق الصارم يمكن إسقاطه على الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعلم والأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والروابط القرابية ... والمقارنة مع منطق الوضعية، ولكننا سنتتبعه هنا فقط في ساحات الجهاد حيث يجري تفعيله على نطاق واسع باتساع الساحات، وسنلاحظ أي نوع من العقليات تربي السلفية الجهادية أبناءها عليه، وأي عقليات تنتج مقارنة بعقلية الجهاد والنضال الوطنيين:

بين الجهاد الوطني والجهاد السلفي

الجهاد السلفي محكوم باوامر الله واوامر رسوله ﷺ:

- {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} (الأنفال ٦٧)
- {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} (الفتح ٢٩)
- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} (التوبة ٧٣)
- {أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} (الإسراء ٥)
- {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} (آل عمران ١٢٦)
- [لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ] (حديث نبوي صحيح)

إذن التمحيص عبر المزيد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يحيلنا حتما إلى العقلية السائدة في التعامل مع الأعداء، وهي عقلية جهادية صيغت بموجب المرجعية الدينية لتكون محملة بسمات الغلظة والبأس والشدة والذبح والإثخان في الأرض بالنسبة للأعداء يقابلها عقلية اللين والرحمة بالمؤمنين، والملاحظ بجلاء أن النبي ﷺ ذاته كان أول من التزم بالتعليمات الإلهية وأول من أمِر بها.
فمن الأولى بالمسلمين والمجاهدين، تأسيا بالمنهج النبوي، وليس اجتهادا ولا بدعة، أن يلتزموا في ميادين المعارك وخارجها بالتوجيهات الربانية بديلا عن أية مرجعيات أخرى، ولما يكون هذا هو الأساس في التعامل مع العدو فكيف يصح لهم، بحجة الاجتهاد وتعدد أشكال الجهاد، بأن يلجوا باب التفاوض والمساومات والديمقراطيات ويعرضوا عن الجهاد وهم في قلب المعارك وصولات الأعداء في بلادهم؟
لا شك أنها عقلية لا يمكن أن تنتجها ثقافة سايكس – بيكو أبدا بقدر ما تنتجها عقلية التوحيد وحتى هذه فإن تطبيقاتها في التجنيد فريدة إلى حد ما خصوصا إذا عرفنا أن أغلب مقاتلي السلفية الجهادية هم من صغار السن أو ممن لم يخوضوا تجارب أيديولوجية علمانية أو إسلامية وطنية وبالتالي فلم تتلوث عقولهم ولم تهرم.

لأبي بكر ناجي رأي لافت فيما يتعلق بهذه النقطة، إذ يقول في كتابه "إدارة التوحش": " على فرض أننا نحتاج لمعركتنا الطويلة حتى تنتهي كما نريد – بإذن الله – نصف مليون مجاهد – افتراضاً – فإن إمكانية ضم هذا العدد من أمة المليار أسهل من ضمهم من شباب الحركة الإسلامية الملوث بشبهات مشايخ السوء ، فشباب الأمة على ما فيهم من معاصٍ أقرب للفطرة , وخبرات العقود السابقة أثبتت لنا ذلك ، أما الأحداث الأخيرة فقد وضح للجميع أن العامي بفطرته تفاعل معها أفضل بمراحل من قَعَدَة الجماعات الإسلامية الذين سلموا دينهم لأحبار ورهبان السوء".

فـ"العذارى" الذين يتقبلون ثقافة التوحيد ويقدرون على تحملها أكثر من أولئك الذين علقت برؤوسهم أيديولوجيات ورواسب على الأغلب ستحد من نقاوة توحيدهم وقدراتهم على الالتزام بأسخن مخرجاته، فقد يتحمل هؤلاء دخول المعارك التقليدية بالأسلحة النارية ولكن أنّى لهم أن يتحملوا معارك "الذبح" و"الغلظة" و"الشدة" و "البأس"؟
كانوا يقولون: فقط اصمدوا قليلا قدر يومين، وماذا بعد؟ بعدها ستجدون العالم كله يناصركم ويهب لنجدتكم، فلا صمد أحد ولا وصلت نجدة، ولكن هذه هي عقلية سايكس – بيكو وهي تستنجد بالروس أو بالشرعية الدولية أو بأحرار العالم ناهيك عن الأشقاء والأصدقاء، ولا ريب أنه ثمة فرق بين عقلية العمل والدعاء والتوكل على الله بصيغة {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} (التوبة ١٠٥)، أو {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ} (الأنفال ١٠) وبين عقلية الاتصالات السياسية والوساطات والتدخلات والشرعية الدولية.

وثمة فرق أعظم بين ثقافة الجهاد وثقافة المقاومة والنضال، وفرق مماثل بين عقلية تستنجد بالله وتستمد النصر من عنده غير آبهة بالنتائج، بعد الإعداد بقدر الاستطاعة، وأخرى تحسب حسابا دقيقا أو مغلوطا لموازين القوى السياسية والعسكرية وما إذا كانت الظروف ملائمة لخوض معركة أم لا.

لكن الخلاف بين الجهاد الوطني والجهاد السلفي لا يتوقف عند عقلية الشدة والبأس بقدر ما يمتد ليصل إلى تخوم جبهة الأعداء، فالعدو عند السلفية الجهادية هو عدو سواء كان

محليا أو أجنبيا، ولأنه كذلك وحالة العداء قائمة فلا تصالح معه ولا مهادنة، لكنه عند الخصوم يمكن أن يكون بريئا وضحية كما هو الحال بالنسبة لضحايا أبراج التجارة العالمية أو تفجيرات لندن ومدريد وغيرها أو حتى جنود الاحتلال الأمريكي.

فبعض الجماعات الإسلامية ناهيك عن العلمانية أصبحت مغرمة بعقلية سايكس - بيكو لدرجة أنها لم تعد قادرة على مغادرتها، والأعجب أنها باتت خيارها الذي تدافع عنه بشراسة وتبحث لها عن موطئ قدم وشرعية في إطاره الأمر الذي يعرضها إلى نقد شديد من السلفية الجهادية وهي تأخذ عليها مثلا:

- **التفريط بالحاكمية؛**
- **وتضييع عقيدة الولاء والبراء؛**
- **والتخلي عن الأهداف التي وجدت من أجلها؛**
- **وحصر نفسها في أطر ضيقة؛**
- **وتبعا لذلك السعي للتفاهم مع أعداء الأمة والدين إن لم يكن التحالف معهم؛ وبالتالي فبأي حق ومضمون تعرّف عن نفسها كجماعة إسلامية؟.**

وفي السياق من الجدير الإشارة إلى أن مسألة التوحيد تشكل جوهر الخلافات التي تعصف بالجماعات الجهادية في العراق على خلفية مستقبل البلاد وبالتحديد بين تيارات السلفية الجهادية من جهة وتيارات الجهاد ذات النزعة الوطنية من جهة أخرى.

إذ أن السؤال المطروح هو: لماذا نقاتل؟ ولأية أهداف؟

الجواب، بلغة السلفية، لتعميم جهاد التوحيد وتحرير بلاد المسلمين وإقامة حكم الله في الأرض فهذا يعني أن الجهاد ماض لن يتوقف بقدر ما سيعمل على عبور الحدود، فكما في العراق وأفغانستان والشيشان وغيرها موحدون ففي فلسطين والأردن وسوريا ولبنان ومصر والمغرب ونيجيريا وإندونيسيا والفلبين موحدون أيضا، فلمن يُترك هؤلاء؟

غير أن أهم الملاحظات على تعميم ثقافة التوحيد لدى السلفية الجهادية تكمن فيما تتلقاه من اتهامات بالتكفير لدرجة أن الخصوم باتوا يلمزونها أو يجهرون صراحة بوصمها وروادها بـ "التكفيريين". على أن القاعدة تنفي هذه التهمة جملة.

لكن هذه المشكلة التي غالبا ما يقع تجاوزها في ساحة ما يستعصي مواجهتها في ساحات أخرى أكثر أهمية .

فبعض المنتسبين للسلفية الجهادية إذا ما تعارضت قناعاتهم وأفهامهم مع العلماء والفقهاء من السلف لا يجدون غضاضة من التنكر لهم وعدم الأخذ عنهم، وحتى فقه الضرورات لا يعملون به ولا يقيمون له وزنا بل أنهم لا يتوانون عن التكفير لأتفه الأسباب، وإذا فعلوا قاطعوا الآخر حتى لو كان من أقرب المقربين فلا يسلمون عليه ولا يدعون له ولا يجالسونه ولا يجادلونه لا بالحسنى ولا بغيرها، والحوار معهم منقطع، ولعل النبذ والعزل كان من نصيبهم لما تسببوا فيه من التنفير والأذى للعامة والخاصة وللدين، **ومثل هؤلاء يتبرأ منهم حتى أنصار السلفية الجهادية لجلافتهم وتعنتهم وسوء معاملتهم وتطاولهم على المجاهدين وعلى مشايخهم.**

ثانيا: "محاربة الطواغيت"

الطاغوت غالبا ما يطلق على الحاكم، ففي كل مناسبة نجد دعوات تنهال على الحكام الطواغيت مصحوبة بسيل من الاتهامات بموالاة الكفار والمشركين أو بمنعهم الجهاد أو بقمعهم لشعوبهم أو بسيطرتهم على ثروات البلاد أو بهيمنتهم على الشعوب أو حتى باختزال الوطن بشخصياتهم، في حين أن الطاغوت في التوصيف القرآني ليس له هوية أبدا، قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} (البقرة ٢٥٦)، ومن الواضح أن الآية:

- فيها عموم (الطاغوت) بحيث يدخل فيها الحاكم وغير الحاكم من الناس وغير الناس، فضلا عن أنها لم تحدد هوية الطغيان فيما إذا كان اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو ثقافيا... الخ

فواقع الأمر أن للمفهوم سعة لا حدود لها بحيث ينطبق على الفرد والمجتمع والمؤسسة والحزب والجماعة والأيديولوجيا مثلما ينطبق على كل ما يعبد من دون الله سواء كان مسلما أو غير مسلم.

ثالثا: سايكس بيكو، واقع وثقافة

لم تكن معاهدة سايكس - بيكو سنة ١٩١٦ بين القوى الكبرى (فرنسا وبريطانيا) في أوائل القرن العشرين إلا ثمرة اتفاق على تقاسم تركة الإمبراطورية العثمانية.

هذه المعاهدة نتج عنها (١) فرض استقلال تركيا في دولة مستقلة و (٢) إلغاء نظام الخلافة الإسلامي و (٣) تقسيم ما أسمي استعماريا بالوطن العربي و (٤) فرض الوصاية على ٢١ جزء منه تحولت إلى دول مستقلة، ومن (٥) ثم فرض التبعية السياسية والاقتصادية والقانونية والثقافية عليها، وأخيرا (٦) زرع الدولة اليهودية في قلب المنطقة العربية في (٧) عملية تقطيع أوصال حضارية، و (٨) منع أية عملية توحد في المستقبل بفعل القوة الجديدة في المنطقة.

كان لدى العرب أرض واحدة وأمة واحدة وعقيدة واحدة وثقافة واحدة وحاكم واحد ونظام واحد واقتصاد واحد وبضعة بحار، والآن لديهم ٢٢ دولة و ٢٢ بقعة جغرافية و ٢٢ شعب عربي أو مسلم و ٢٢ أمة و ٢٢ قومية يحكمها ٢٢ نظام سياسي و ٢٢ عقيدة و ٢٢ حضارة و ٢٢ تاريخ و ٢٢ ثقافة و ٢٢ نظام تعليمي و ٢٢ اقتصاد و ٢٢ سياسة و ٢٢ منظومة قانونية و ٢٢ بحر و ٢٢ فضاء! وقائمة لا تنتهي من التمزق .

نظريا، وحين البحث عن عناصر الوحدة ومبرراتها، يبدو الأمر ممكنا، ولكن عمليا من يستطيع أن يحقق الاجتماع العربي بأدوات ولدتها تقنيات سايكس - بيكو عبر ٢٢ وحدة بنيوية أصبح لكل منها طموحاتها وأهدافها وشروطها ورؤاها وآليات اشتغالها؟

ففي الجزيرة العربية استبدل الاسم بدول الخليج العربي كنظير للخليج الفارسي، ورغم تماثل البنى الجغرافية والسكانية والاقتصادية ظلت قطر هي قطر والبحرين هي البحرين والكويت في واد مثلما هي عمان في واد آخر أما

اليمن التي تعد الخزين الحضاري والديمغرافي للجزيرة فهي تعيش وكأنها في قاع الأرض.

وفي دول المغرب العربي لدينا وحدة جغرافية وسكانية مفككة كبلاد الشام، أما مصر فقد انتزعت من العروبة والإسلام ليعاد إرسالها إلى رحم الفرعونية وكأنها باتت بلاد بلا تاريخ إلا من أبو الهول وأهرامات الجيزة وشارع الهرم سيئ السمعة والصيت!

ولما يكون الأمر كذلك فعلى أية أسس ينادي القوميون وأمثالهم بوحدة لن تتحقق أبدا؟ وكيف يمكن لوحدة أن تتحقق بعد هذه العقود إذا كان البعض يتخوف الآن من تجزئة القطر نفسه ويدعو إلى الحفاظ على تماسكه؟!

أما الشواهد على اشتغال آليات التجزئة فثمة منها ما يفوق كل تنبؤ، فما دامت سايكس – بيكو تعمل بكامل طاقتها وعنفوانها فلن يكون مستغربا أن تشمل عمليات التفكيك الحضاري والأخلاقي والإنساني العقيدة نفسها ويُعتدى على الدين والأنبياء والرسل وتشوه صورة الإسلام ويحرف الدين عن بكرة أبيه حتى يغدو ملائما لليبرالية، وها هي دول التجزئة تتلقى المزيد من المطالب بتعديل مناهجها التعليمية، وليس العلمية غير الموجودة أصلا، بحيث تؤدي عمليات التعديل إلى إلغاء عقيدتها حتى لا تكون للأمة أية مرجعية يعتد بها حين تقع النوازل عليها.

ولعل أطرف ما في سايكس – بيكو كثقافة ما خزنته المصادر والمراجع في عقول الأجيال عن ثورات وحركات تحرر واستقلال عن القوى الاستعمارية! ولم يعد العرب يطالبون لا بالتوحد ولا بالخلافة. وكم كان الاستعمار كريما وهو يسمح لـ "الشعوب العربية" بمناهضته بالسلاح بينما هو في قمة النشوة أن مخططاته نجحت سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وحتى طائفيا، وصارت سايكس بيكو واقعا وفكرة وعلامة سياسية برسم الاستقلال والتحرر وتقرير مصير! وباتت الأعلام ترفرف على المؤسسات الوطنية والنشيد الوطني يتلى صباحا في المدارس وكأنه قرآن.

لذا فإن السلفية الجهادية ترفض كل البناء باعتباره بناء باطلا ومخالفا للشريعة.

وعليه ينبغي هدمه من الأساس لإعادة البناء من جديد على أسس شرعية، فهل يكفي هذا التوصيف لنفهم حقيقة العبارة التي ترددها السلفية وأنصارها على الدوام والتي تحولت إلى أساس كل صراع "الدم الدم والهدم الهدم"؟

فما الذي تعنيه السلفية الجهادية حين تصف مخالفيها بأنهم صناعة سايكس بيكو وحملة ثقافتها؟

على الصعيد السياسي، وتأسيسا على عقيدة التوحيد، فإن موقف السلفية الجهادية من الجماعات الإسلامية كافة يتحدد بالنظر إلى تفاعلها سلبا أو إيجابا مع ما أنتجته سايكس – بيكو من مؤسسات وأنظمة وقوانين وأيديولوجيات ومفاهيم ومصطلحات وغيرها.

الأهم في سايكس – بيكو بوصفها حالة ثقافية هو ذاك الخراب الذي أصاب القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية في الصميم، إذ أن قيم العنصرية تضرب الغالبية الساحقة من البلدان العربية وتجد من يدافع عنها ويتفاخر بها، وأكثر من ذلك فيما يتصل بقيم من المفترض أنها منبوذة عقديا وشرعيا إلى حد اعتبارها من الكبائر كالكذب وشهادة الزور والسرقة والفساد والزنا والغدر والاحتيال والنصب والاحتكار واللامبالاة والاستهتار حتى في الدين وسب الإله والأنبياء، ولا غرابة إذا قلنا، من واقع التجربة والمعاينة، إن بعض المجتمعات العربية تغزوها اليوم أحط القيم وأشدها تناقضا لدرجة أن المرء يتساءل فعلا إن كانت هذه المجتمعات ذات قيم إسلامية كما يروج لها القائمون عليها أو أن لها علاقة ما بالإسلام! إذ من السهل ملاحظة شيخ نصاب ومصل كذاب ومحدث جاهل وجار سوء وصديق غادر ومتبرجة تصوم وموظف لئيم وزانية تعمل بترخيص حكومي.

في سايكس بيكو أيضا كل يغني على ليلاه! حتى الثقافة السياسية للمواطن غدت ذات مواصفات عنصرية بغيضة وضيقة وهي تحصر نفسها بأطر جغرافية واجتماعية، وبتنا نلاحظ لغة من نوع "البلاد بلادنا ونحن أحرار فيما نفعل بها"! ثم تطورت إلى صيغة "أولا"، ولما تكون الثقافة بهذه الصيغة فالسؤال المشروع: أيها يكون ثانيا وثالثا ورابعا وخامسا؟ الدين؟ العقيدة؟ وما هو الترتيب الذي يحتله الحرمان الشريفان أو المسجد الأقصى؟

ولا شك أن مثل هذه المشاهد في رحاب سايكس بيكو تبدو أكثر غرابة لدى الحركات الإسلامية التي نالت القسط الأكبر من هجوم السلفية الجهادية عليها على خلفية الدفاع عن سايكس بيكو وتبني أطروحاتها من دولة وطنية إلى دولة علمانية يجري تخفيف وطأتها عبر التعبير عنها بـ "دولة مدنية"!

كما أن بعض الجماعات الجهادية نكصت على عقبيها وبات خطابها السياسي والديني أشد وقعا على الجهاد والمجاهدين وقضايا الإسلام من خطاب السلطة ذاته الذي يضطر في كثير من الأحايين إلى التواري في تصريحاته خشية إثارة الرأي العام من حوله فيما لا تتوانى جماعة إسلامية، على خلفية أحداث مخيم نهر البارد مثلا، عن تقديم الفلسطينيين وكأنهم المذنبون فيما وقع عليهم من ظلم تاريخي فضلا عن أن مسلحيهم لا يحترمون البلدان المضيفة لهم.

أما القضايا الكبرى مثار الخلاف فتكمن فيما تعتبره السلفية الجهادية تراجعا من هذه الجماعات عن الأهداف التي نشأت من أجلها كقضايا الحاكمية والجهاد والموقف من الدولة و"أنظمة الطواغيت" والتحالف مع القوى المعادية للأمة، محليا وخارجيا، ومحاربة المشروع الجهادي العالمي كما حصل في أفغانستان والعراق والجزائر وحتى فلسطين.

زد على ذلك أن بعضها أصيب بآفة الغرور والتعصب بحيث بات التنظيم بعينها هدفا بحد ذاته والسد الوحيد الذي بدونه ستنهار الأمة وبعضها الآخر لمّا يزل أسيرا لأطروحات قديمة غير مجدية ناهيك عن جماعات أخرى ليس لها من الإسلام أكثر من الطبل وإحياء المناسبات، بل أن النفيسي يصف هذه الجماعات، في الجزيرة العربية، وعلى اختلاف مسمياتها ما عدا القاعدة، بأنها "داخلة مع السلطة في البزنس".

من المستحيل على من يلجأ إلى إفرازات سايكس بيكو أن يستعمل تقنيات مغايرة، فمن يرتضي القَسَم على الدساتير الوضعية مثلا أو يقرر الولوج إلى ساحة الفعل السياسي العلني أو ينشئ جماعة مرخصة لا بد له وأن يعترف أولا بأن لكل منظومة وسائلها وتقنياتها ومدخلاتها، ولا بد له أن يقبل بقواعد اللعبة كما تفرضها خصائص النشأة، وحينها لا تثريب عليه فيما هو ذاهب إليه من سياسات وما يترتب عليها من نتائج، لكن الاحتجاج باجتهادات شرعية أو سياسية لتبرير اختياراته هو ما يثير السلفية الجهادية التي ترى في مثل هذه التوجهات والمواقف ردّة وإرجافا وتخذيلا أو ليًّا لعنق النصوص ، كما لا ينفع، في مثل هذه الحالات التي تستدعي موقفا شرعيا صارما، التحصن بتاريخ الجماعة وتضحياتها ولا بالثقة في رجالاتها ولا بالمراهنة على عامل الزمن ريثما تثبت صحة السياسات المتبعة وكأنه وقفٌ عليها تحبسه بسياساتها متى تشاء وتفرج عنه متى تشاء وما على الأمة إلا الانتظار أو منح الثقة بلا تحفظ! .

ان الفارق بين السلفية الجهادية والجماعات الأخرى يكمن في تحكيم الشريعة والالتزام بها فيما يذهب إليه كل منهما في سياساته، وهو المعيار ذاته الذي يتيح للسلفية إعلان حالة الحرب على سايكس بيكو وكل مخلفاتها بنفس القدر الذي تعلن فيه الحرب على القوى الغربية والمعادية للأمة، في حين تبدو الجماعات الأخرى قانعة بقواعد اللعبة إلى درجة تمكن أقربها للجهاد:

– من نبذ وإدانة الفكر السلفي الجهادي ووصفه بالفكر الخارجي والغريب عن الأمة؛

– بل وإنكار وجوده عبر التقليل من شأنه على مستوى الأمة؛

– أو إحالته إلى قوى استخبارية أمريكية وصهيونية باعتبارها بلد المنشأ؛

– والعمل على مكافحته بما يتوافق تماما مع الأطروحات الأمريكية الداعية إلى "مكافحة الإرهاب"، وتشكيل لجان خاصة للغرض.

– بل ومحاربته بالسلاح، وإذا اقتضى الأمر التحالف الصريح والعلني مع أعداء الأمة على سحقه كما حصل في أفغانستان ويحصل الآن في العراق. والطريف أن مثل هذه التوصيفات ذات المنحى التكفيري والتي تُرمى بها السلفية من قبل خصومها هي ذاتها التي تُتهم هي بها.

رابعا: العلماء والفقهاء، أي دور؟ وأية وظيفة؟

بعد سقوط دولة الخلافة نشأت جماعات وتيارات متنوعة، ووقعت اصطفافات للعلماء والأتباع داخل هذه الجماعات :

· تيارات جهادية وطنية خاصة في مصر والجزائر وفلسطين.

· تيارات عالمية كالقاعدة في أفغانستان والعراق ومجاهدي الشيشان وكشمير والفلبين وغيرها.

· تيارات سلمية معارضة للدولة والحاكم تميزت بتاريخ جهادي أو قربها من الجهاد والمجاهدين إلا أنها تراجعت وباتت أقرب ما تكون إلى جمعيات ذات طابع إغاثي واستثماري كالإخوان في مصر والسرورية في السعودية.

· تيارات إخوانية المنشأ والانتماء تحالفت مع السلطة حيث تكون كما هو الحال في أفغانستان والجزائر والعراق، وبقطع النظر عن هوية السلطة أو القوة ما إذا كانت محلية أو أجنبية غازية.

· تيارات حليفة للدولة حملت أسماء رموزها كالمدخلية والجامية.

· وتيارات ارتدت عن أهدافها ونشأتها ونبذت تاريخها وعقدت صلحا مع الدولة.

· التيارات الإرجائية، وهم الذين يعتقدون اعتقاد المرجئة الأوائل: بأن الإيمان هو الاعتقاد فقط، أو الاعتقاد مع القول باللسان فقط، أو المعرفة فقط دون العمل.

ولا ريب أن العمل الإسلامي وفقا لصيغ التيارات المعروضة معقد خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود تيارات إسلامية أخرى ذات طابع علماني! وأخرى تعلن تمسكها بالعلمانية كما هو الحال في تركيا وثالثة تروج لما تسميه بالإسلام الليبرالي، وبالتأكيد فالأمر يزداد تعقيدا ويصبح عصيا على الفهم كلما توالت التصريحات والبيانات الصادرة عن التيارات والجماعات والعلماء والفقهاء وهي محملة بالتناقضات والفتاوى المثيرة إلى الدرجة التي يستحيل معها التصنيف والمراقبة وحتى الفهم.

ففي أي سياق شرعي، مثلا، نضع عالم يفتي بحق فرنسا بحظر الحجاب؟ أو عالم يبيح إمامة المرأة؟ أو عالم يدافع عن الأمريكيين وجرائمهم؟ أو يفتي بجواز قتال الجندي الأمريكي المسلم للمسلمين!! وآخر يفتي بأن بول بريمر ولي أمر ولا يجوز الخروج عليه؟ وعالم يفتي بعدم جواز الدعاء على اليهود لأنهم أهل كتاب!؟ ويحرم الجهاد ويكفر المجاهدين لأنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت حسب قوله!؟ وعالم يطالب قادة المجاهدين ورموزهم بالخروج من سراديبهم وهو يعلم ما ينتظرهم؟ وعالم يدعو لدولة علمانية في فلسطين تجمع اليهود والنصارى والمسلمين ثم يتراجع ويقول دولة مدنية!؟ وثاني يجيز الصلح المطلق مع اليهود؟ وثالث يتنكر لوجود جماعة جهادية من الأساس ويصف فكرها بالمنحرف وصنيعة الأمريكيين واليهود وفي نفس الوقت يبيح تناول المشروبات الروحية في الفنادق!؟ وعالم يفتي بجواز إرضاع الموظفة لزميلها في العمل لتجاوز الخلوة؟ وعالم يعطي الحق للمسلم بالارتداد عن دينه؟ ويرى بالصحابة أشاعرة!؟ ويقول إن عمر بن الخطاب أحول بطول ثلاثة أمتار؟ وعلماء يتساءلون عمن أجاز للقاعدة الجهاد باسم الأمة؟ وعلماء يؤيدون هذه الجماعة ضد تلك؟ وعلماء يهاجمون علماء ويجردونهم من علمهم لاختلافهم معهم في الرأي والتوجه؟ وعلماء يبترون الآيات القرآنية والأحاديث في أسانيدهم أو يقطعونها من سياقها؟ وعلماء يجهدون في تشويه الجهاد والمجاهدين ويفتون بعدم مشروعيته ولكنهم لا يبينون مرة واحدة متى يكون الجهاد فرض عين؟

كل هذا "العجب" بعرف السلفية هو ضلال مبين وتضليل وظلم للأمة وانحراف خطير في العقيدة، وعلى حد قول أبي يحيى الليبي في رده على مفتي السعودية لو صمت هؤلاء عن قول الحق لكان "خيرا لهم ولنا إذ أن للحق أهله"، ولكنهم اصطفوا يدافعون عن الباطل ويشرعون له ويروجون ويهاجمون الجهاد وأهله، لذا فهي تستخدم توصيفات صارمة بحق أمثال هؤلاء العلماء والوعاظ والدعاة الذين تعتبرهم ممن حجبوا قول الحق الذي أودعه الله فيهم وحرفوا وبدلوا في دين الله وتسببوا في هزيمة الأمة وقهرها وفي أحسن الأحوال هربوا من الفصل في النوازل والقضايا المطروحة إلى العموميات عبر تمييع الحكم الشرعي القابل للبناء عليه، وبالتالي فلا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولو اعتدلوا لتغيرت موازين القوى ومالت الكفة لصالح الإسلام والمسلمين، ولأنهم لم يفعلوا فلا بد من قول كلمة الحق فيهم والتخلص منهم باعتبارهم "علماء سوء" أو "تجار دين"، فمثلهم من يبرر أو يجادل أو يدافع عن ثقافة سايكس بيكو ومنتجاتها، ومثلهم من يسهل عليه دعم سياسات الدولة والحاكم وتبني أطروحات الغرب في "تهذيب" الإسلام ونبذ التطرف ومحاربته، ومثلهم من أجاز غزو البلاد الإسلامية وشرّع لبناء قواعد عسكرية ضخمة على أراضيها ومنعوا أهل البلاد من مقاومتها وأحالوا أمر جهاد الدفع إلى ولي الأمر باعتباره الإمام وهو الذي لم يدعُ في يوم ما إلى نفير أو شارك في جهاد، ومثلهم من يجهد في إصدار فتاوى القعود والتشكيك بالمجاهدين وصولا إلى وصمهم بالإرهاب والخوارج ودعاة الفتنة.

ومثلهم من ينتصر للوطن والنظام أكثر مما ينتصر للعقيدة والأمة ، ومنهم من يروج لما يسميه بالإسلام الوسطي] المعتدل. ومثلهم من وصل بهم الأمر إلى حد السخرية من الجهاد والمجاهدين ومن كل مقدس ومحرم حتى أن بعضهم سار في ركب فتنة الجهاد والمجاهدين في ساحات مختلفة من الجهاد فامتطوا ظهور الدبابات الأمريكية وشاركوا في الحكومات العميلة وشرّعوا لقواعدهم الفتك بالمجاهدين ومحاربتهم وكشف مخابئهم وإعانة المحتل عليهم، وكل ذلك تحت بند الاجتهاد!

والثابت أن مواقف العلماء والفقهاء تجاه الأحداث الكبرى تختلط وتتناقض رغم تشابهها إلى حد التطابق، وتتأرجح بين التأييد العلني تارة للجهاد والمجاهدين وبين الخضوع لسطوة السلطان تارة أخرى وبين التطوع لعداء سافر أو الانزواء، فمن بين المواقف صدور فتاوى تدعم الجهاد في أفغانستان وتحرض عليه وتدعو للنفير لرد الاحتلال الشيوعي بما في ذلك فتاوى مماثلة ضد جرائم الشيعة في العراق وما يسمى بالمشروع الصفوي في المنطقة، ولكن ثمة فتاوى أخرى نفرّت من الجهاد في العراق بحجة غياب الإمام والراية، وليس مفهوما كيف يتمتع الشيعي بامتياز المجاهدة ولا يكون للغازي والمحتل المعاملة بالمثل!

ومنهم من أفتى باعتبار القوات الأجنبية مستأمنة في بلاد المسلمين، وآخرون أفتوا بمقاتلتهم إبان حرب الخليج الثانية.

لا شك أن مثل هذه الفتاوى تجعل من حسم الموقف مع العلماء مهمة عسيرة على السلفية الجهادية ومريرة، لكن ملاحظة تمايز بينهم على أساس قربهم أو بعدهم عن الجهاد والمجاهدين يمكن أن يسهل المهمة ويضيق الخناق على من يسميهم د. أيمن الظواهري بـ "علماء السوء" ويتيح لها الاستفادة من علمهم وتوسيع دائرة العلماء العاملين.

على أن السمت الرئيس في العلاقة ما بين العلماء والسلفية الجهادية يبقى مركزا على وجوب الالتزام بثنائية "العلم للعمل" لأنه لا قيمة لعلم دون عمل (= الجهاد والصدع بالحق)، ولا قيمة لعلم يوظفه حامله لإلحاق الأذى بالأمة، ولا قيمة لعلم الولاء والبراء فيه لسايكس – بيكو.

حصانة العلماء

من البديهي أن يتمتع العالم أو الفقيه بعلم شرعي مرموق، ومن الطبيعي أن يستمد هيبته أو حصانته من الرصيد العلمي الذي يتمتع به، **ولكن الإشكال يكمن في النظر إلى العالم وكأنه يتمتع علاوة على حصانته العلمية بحصانة شرعية تجعله معصوما من الوقوع في الزلل والخطأ، والمسألة أكثر من مشهد نورد بعضها:**

1) مشهد عالم من المفترض أنه موثوق يفتي في نازلة على نحو مخالف لما هو مألوف أو مفاجئ فتكون الردود متوافقة مع الفتوى أو متحفظة بحجة أن العالم لا يرد عليه إلا عالم وهذا موقف منطقي، لكن مقولة " اتقوا لحوم العلماء فإن لحومهم مسمومة" حدث فيها مبالغة وتعسف في استعمالها فيما يبدو، وباتت كالسيف المسلط على من يعارض الفتوى أو ينتقدها خاصة ممن هم أقل درجة وكأن ما يحق للعلماء، حتى لو كان فيه اعوجاج، لا يحق لغيرهم وإن أصابوا.

2) مشهد عالم راسخ في العلم، وخدم في علمه العقيدة والدين والمسلمين وانتشرت كتبه وفتاواه حتى بلغت أقاصي الأرض وباتت مراجع أساسية كبرى يتدارسها العلماء والطلبة على حد سواء ويرجع لها في الحكم على النوازل، لكن مواقف هذا العالم في قضايا سياسية وشرعية كبرى كالجهاد والحاكمية والقوى الأجنبية وغيرها مما يلتبس على العامة والخاصة إما أنها قريبة من السلطة أو متطابقة معها أو مختلطة أو ذات معايير مزدوجة، هذا النوع من العلماء ممن ذاع صيتهم بين الأمم غالبا ما يتسببون بانقسام الأمة التي تنتظر القول الفصل على ألسنتهم ثقة بسعة علمهم، ومع ذلك يصعب الطعن بهم دون ثمن باهظ، بل يحظون بالتماس العذر حتى من أتباعهم فيما لو ثبت عليهم من الزلات ما هو عظيم الأثر .

وأخطر ما في فتاواهم أنها لا تأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن. فمن يجيز الصلح الدائم (التطبيع) مع اليهود مثلا عليه أن يعرف مقدار صمود الفتوى ومدى مطابقتها للشريعة وإلا ففي حال سقوطها فالمشكلة ستكون وبالا على الأمة خاصة وأنها ستغدو سابقة يقاس عليها ولو بعد ألف عام بحجة أن راسخا في العلم أفتى في يوم ما.

3) مشهد عالم حتى لو كان عاملا إلا أن تلامذته يتبعونه فيما

يذهب إليه من أقوال وأفعال ومذاهب، ويحيطونه بـهالة من القدسية والعظمة.

فإذا التحق بالجهاد لحقوا به وإذا قـعد عنه قـعدوا معه وإذا نكص على عقبـيه نكصوا معه وإذا أخطأ التمسـوا له ما لا يلتمسون لغيره من الأعذار، وبـما يفيض عن حـاجته، أما صعوبة التعامل مع هذه الحـالة فتكمن في تلامذته ومريديه الذين يشكلون بالنسبة له، شاء أو أبى، ما يشبـه الحـصانة بحيث يترصدون كل نقد يصيبه أو نصيحة توجه له. وفي هذه الحالة التي يُنتظر فيها من العالم أن يحـمي الأمة والدين نراه حين ينزلق يحتاج إلى حماية من أتباعه ويركن إليهم!

4) مشهد عالم لا يعنيه الموقـف الشـرعي فيبـرر التعامل الصريح لجماعته أو حزبه مع العدو أو إعانته بمجرد اجتهاد سياسي قد يصيب وقـد يخطئ رغم ما يتسبـب فيه مثل هذا الموقف من انقسام في الأمة وتضليل للعامة، والإشـكال أن هذا العالم يجر معه القـاعدة إذا ما كان في موقـع القـيادة. والأسوأ أن أغلب مكونات القـاعدة تلحـق بـه وتدافع عن خياراته كما لو أن مرجعيتها الحزبية أقـوى من أية مرجعية أخرى بما فيها الشريعة.

وحقيقة فالمشاهد كثيرة في هذا السـياق، وغالبـا ما تفشـل المناقشات والردود ومحاولات بيان الموقـف الشـرعي في تحقيق أية نتيجة تذكر حـتى لو احـتمت السـلفية الجهادية بنصيحة الإمامين أحمد بن حنبل وابن المبارك أو احـتجت بعقيدة الولاء والبراء أو بمقـولات من نوع: "الحـق يعرف بالحجة ولا يعرف بالرجال" أو "كل قـول يؤخذ منه ويرد إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فالخلاف قد يطال أهل الثغور أنفسهم مثلما يطال الحق نفسه دون أن تسـلم عقـيدة الولاء والبراء من الاجتهاد وحتى الطعن.

لكن نقـطة القـوة لدى السـلفية الجهادية تكمن في دعوتها المفتوحة والمستمرة للعلماء للالتحاق بساحات الجهاد بـدلا من إصدار الفتاوى التي تطعن في الجهاد عن بعد.
وحجة السلفية أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في مقدمة الجيش الإسلامي في غزواته وفتوحـاته ولم يكن متخلفا في يوم ما، كما أن الصحابة والعلماء من بعدهم كانوا على الدوام في صفوف الجيش. إذ هو واجب شـرعي أولا على كل المسـلمين علماء وعامة، فضلا عن أن ساحـات الجهاد لا تخلوا من أخطاء، والمجاهدون كغيرهم من البشـر ليسـوا معصومين فيمكن أن يصيبوا أو يخطئوا، وبـدلا من التجرؤ عليهم كان من الأولى بالعلماء ألا يفارقوا الجهاد والمجاهدين ويفتوا في أمورهم عن بـينة، وأن يكونوا عونا لهم لا عليهم، وحينها يمكن محاصرة الفتن ووأدها في مهدها عبـر بـيان الحكم الشرعي بـناء على الظروف والواقـع وليس عبـر الاستماع من هنا وهناك وما يترتب على ذلك من قصور في الصورة وربما تجني من طرف على آخر.

غير أن مثل هذه الدعوات التي تتكرر في كثير من خطابـات رموز السلفية الجهادية وتعج بها كتاباتهم بصورة كثيفة للغاية لم تلق آذانا صاغية بالشكل المرجو الوصول إليه حتى الآن، بل أنها تلقى تجاهلا وصدودا وبعضها لا تخلو من ريبة وهي تطالبـهم بـ "الخروج من سراديبـهم لمبـاهلة العلماء ومجالستهم"ما حدا بأحد أنصار السلفية الجهادية إلى مطالبة هؤلاء الشيوخ – الشيخ القرضاوي صاحـب الدعوة – إلى "الخروج من قصورهم لمجالسة المجاهدين في سراديبهم"!.

يتبـ(إن شاء الله)ـع

(صناعة القيادة عند السلفية الجهادية)

الراية، للأمة؟ أم للجماعة؟

القيادة، مواصفات وشروط

العلم الشرعي

التمرس في ساحة الجهاد

